في الرَّبيع الأزرق (١)(٢)

خواطرُ مرسلةٌ

ما أجمل الأرضَ على حاشيةِ الأزرقيْن البحرِ ، والسَّماء ! يكاد الجالسُ هنا يظنُّ نفسه مرسوماً في صورةٍ إلـٰهيَّةٍ .

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَي طفلٍ يتخيَّل : أنَّ البحر قد مُلئَ بالأمس ، وأنَّ السَّماءَ كانت إناءً له ، فانكفأ الإناءُ(٣) فاندفق البحر ، وتسرَّحْتُ مع هذا الخيال الطِّفليِّ الصَّغير ، فكأنَّما نالني رَشاشٌ من الإناء . . .

إنَّنا لن ندركَ رَوعةَ الجمال في الطَّبيعة إلا إذا كانت النَّفسُ قريبةً من طفولتها مَرحِ الطُّفولةِ ، ولعبِها ، وهَذَيانِها .

* * *

تبدو لك السَّماءُ على البحر أعظمَ ممَّا هي ، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى ، لا من الأرض .

* * *

إذا أنا سافرتُ ، فجئتُ إلى البحر ، أو نزلت بالصَّحراء ، أو حللتُ بالجبل ؛ شعرتُ أوَّلَ وهْلةٍ من دهشة السُّرور بما كنت أشعر بمثله لو أنَّ الجبلَ أو الصَّحراء ، أو البحرَ قد سافرت هي ، وجاءت إليَّ .

* * *

في جمال النفس يكون كلُّ شيءٍ جميلاً ؛ إذ تُلقي النَّفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدَّارُ الصَّغيرة قصراً ؛ لأنَّها في سَعَة النَّفس ، لا في مساحتها هي ، وتعرف لنور النَّهار عُذوبةً كعذوبة الماء على الظَّمأ ، ويظهر اللَّيلُ كأنَّه معرضُ جواهرَ أقيم

---

(١) كتبها في مصيفه بالإسكندرية . (س) .

(٢) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر ؛ وقد شاع استعمالُها بعد نشر هذه المقالة . (ع) .

(٣) « انكفأ الإناء » : قُلِب ، وانصبَّ ما فيه .

للحُور العين في السَّموات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ، ونسماتِه كأنَّه جَنَّةٌ سابحةٌ في الهواء .

في جمال النَّفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورة الخليقة ؛ وَيْ ! كأنَّ الله أمرَ العالَم ألا يَعبَسَ للقلب المبتسم .

* * *

أيامُ المَصِيف هي الأيَّامُ الَّتي ينطلق فيها الإنسان الطَّبيعيُّ المحبوسُ في الإنسان ، فيرتدُّ إلى دهرِه الأوَّل ، دهرِ الغابات ، والبحار ، والجبال .

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ؛ لم يكن فيها معنى .

* * *

ليست اللَّذة في الرَّاحة ، ولا الفراغ ، ولكنَّها في التَّعب ، والكَدْحِ ، والمشقَّة حين تَتحوَّلُ أياماً إلى راحةٍ ، وفراغٍ .

* * *

لا تتمُّ فائدةُ الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ إلا إذا انتقلت النَّفسُ من شعورٍ إلى شعورٍ ، فإذا سافر معك الهمُّ ؛ فأنت مقيمٌ لم تَبرحْ .

* * *

الحياةُ في المصيف تُثبت للإنسان : أنَّها إنَّما تكونُ حيث لا يُحْفَلُ بها كثيراً .

* * *

يشعر المرءُ في المُدن : أنَّه بين آثار الإنسان ، وأعماله ، فهو هناك في رُوح العَناء ، والكدْح ، والنِّزاع ، أمَّا في الطَّبيعة ، فيُحسُّ : أنَّه بين الجمال ، والعجائب الإلـٰهيَّة ، فهو هنا في رُوح اللَّذة ، والسُّرور ، والجلال .

* * *

إذا كنت في أيَّام الطَّبيعة فاجعل فكرك خالياً ، وفرِّغه للنَّبْت ، والشَّجر ، والحجَر ، والمدَر[1] ، والطَّير ، والحيوان ، والزَّهر ، والعُشْب ، والماء ،

(١) « المدر » : قِطَع الطين اليابس المتماسك .

والسَّماء ، ونورِ النَّهار ، وظلامِ اللَّيل ، حينئذٍ يفتح لك العالم بابه ، ويقول : ادخل . . .

* * *

لُطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عظمة الجمال ، عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ في غصنٍ، فخيِّل إليَّ : أنَّ لها عظمة البحر لو صَغُرَ فعُلِّق على ورقةٍ .

* * *

في لحظةٍ من لحظات الجسد الرُّوحانيَّة حين يفورُ شِعْرُ الجمال في الدَّم ، أطلْتُ النَّظرَ إلى وردةٍ في غصنها ، زاهيةٍ ، عَطرةٍ ، متأنِّقةٍ ، متأنِّثةٍ ، فكدت أقول لها : أنتِ أيَّتها المرأة ! أنتِ يا فلانة . . !

* * *

أليس عجيباً : أنَّ كلَّ إنسانٍ يرى في الأرض بعضَ الأمكنة كأنَّها أمكنةٌ للرُّوح خاصَّة ؟ فهل يدلُّ هذا على شيءٍ إلا أنَّ خيالَ الجنَّة منذ آدَم ، وحوَّاءَ ، لا يزال يعمل في النَّفس الإنسانيَّة ؟

* * *

الحياة في المدينة كشرب الماء في كوبٍ من الخزَف ، والحياةُ في الطَّبيعة كشرب الماء في كوبٍ من البَلُّور السَّاطع ؛ ذاك يحتوي الماءَ وهذا يحتويه ويُبدي جمالَه للعين .

* * *

وا أسفاه ! هذه هي الحقيقة : إنَّ دقَّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها ، كدقَّةِ الفهم للحبِّ ، وإنَّ العقلَ الصَّغيرَ في فهمه للحبِّ ، والحياة ، هو العقل الكاملُ في التذاذِه بهما . وا أسفاه ! هذه هي الحقيقة ! .

* * *

في هذه الأيام الطَّبيعيةِ التي يجعلها المصيف أيام سرورٍ ، ونسيانٍ ، يشعر كلُّ إنسانٍ : أنَّه يستطيع أن يقول للدُّنيا كلمةَ هَزْلٍ ، ودُعابة .

* * *

من لم يُرزق الفكرَ العاشقَ ؛ لم يرَ أشياءَ الطَّبيعة إلا في أسمائها ، وشِياتِها[١] ، دون حقائقها ، ومعانيها : كالرَّجل إذا لم يعشق ؛ رأى النِّساء كلَّهنَّ سواءً ، فإذا عشق ؛ رأى فيهنَّ نساء غيرَ مَنْ عَرَف ، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال ؛ الَّذي في قلبه .

* * *

تقوم دنيا الرِّزق بما تحتاجُه الحياة ، أمَّا دنيا المصيف فقائمةٌ بما تَلذُّه الحياة ، وهذا هو الذي يغيِّر الطَّبيعة ، ويجعل الجوَّ نفسَه هناك جوَّ مائدة ظُرفاءَ ، وظريفات . . .

* * *

تعمل أيام المصيفِ بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخال بعضِ الشِّعر في حقائق الحياة .

* * *

هذه السَّماءُ فوقنا في كلِّ مكانٍ ، غير أنَّ العجيبَ : أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياءَ ، منها السَّماءُ . . .

* * *

إذا استقبلتَ العالمَ بالنَّفس الواسعة رأيت حقائقَ السُّرور تزيد ، وتتَّسع ، وحقائق الهموم تصغُرُ ، وتَضيق ، وأدركت أنَّ دنياك إن ضاقت ؛ فأنت الضَّيِّق ، لا هي .

* * *

في السَّاعة التاسعةِ أذهبُ إلى عملي ، وفي العاشرة أعملُ كيْت ، وفي الحادية عشرةَ أعمل كيتَ ، وكيت ؛ وهنا في المصيف تفقدُ التَّاسعةُ ، وأخواتها معانيها الزَّمنية ؛ التي كانت تضعها الأيَّام فيها ، وتستبدل منها المعانيَ ؛ الَّتي تضعها فيها النَّفسُ الحرَّة .

---

(١) « شياتها » : جمع شِيَة ، وهي العلامة واللون .

هذه هي الطَّريقة الَّتي تُصْنع بها السَّعادة أحياناً ، وهي طريقةٌ لا يقدر عليها أحدٌ في الدُّنيا كصغار الأطفال .

* * *

إذا تلاقَى الناسُ في مكانٍ على حالةٍ متشابهةٍ من السُّرور ، وتَوَهُّمِه ، والفكرِ فيه ، وكان هذا المكان مُعَدّاً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ، ومكارِهِها ؛ فتلك هي الرِّواية ، وممثِّلوها ، ومَسْرَحُها[1] ، أمَّا الموضوع فالسُّخرية من إنسان المدنيَّة ، ومدنيَّة الإنسان .

* * *

ما أصدَق ما قالوه : إنَّ المرئيَّ في الرَّائي . مرضت مدَّةً في المصيف ، فانقلبت الطَّبيعة العَروسُ ؛ التي كانت تتزيَّن كلَّ يومٍ ، إلى طبيعة عجوزٍ ، تذهب كلَّ يومٍ إلى الطَّبيب . . .

* * *

(١) يظن صديقُنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن « المسرح » لدار التمثيل غير صحيح ، وأن صوابها « المزرح » ، ولكنَّ الصاحبَ بن عَبَّاد استعملها في قريبٍ من معنى دار التمثيل ، وأصلها من مرادفات : نَدَى القومِ ومجتمعهم . (ع) .